وآية من هذه الآية، لوحة من هذه السفينة تحمل بشارة محمدية، برزت قبل ربع قرن في وادي قاف السوفيت[١] آرارات، المسماة في القرآن بالجودي، بشارة بأسماء الخمسة الطاهرة: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

فلقد ترك الله هذه السفينة الآية، وما على لوحتها من آية، تركها آية العالمين، وتذكرة للمدَّكرين: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ على الكافرين ﴿وَنُذُرِ﴾ ي؟ إنه كان عذاباً بعد الإنذار والاستكبار، وبعد الإياس عن أثر الإنذار!.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾:

يسرناه عبر القصص والأمثال، وعبر الحجج البالغة والبراهين الدامغة، عبر صنوف العبر، وعبر كل ما تتقلبه الفِطَر والعقول والفِكَر.

هذا وكما نرى القرآن يسر التناول والإدراك، ولحدِّ الإعجاز كما في سائر جوانبه اللفظية والمعنوية، وما عُسر اكتناه معانيه، واقتصاء مغازيه إلّا لأن فيه مجامع العلوم الربانية، الممكن نزولها إلى الخليقة مدى القرون والأجيال، رغم يسره في تعبيره ونضده في عبيره، فمهما كان التعبير يسراً لم يكن إلّا تيسيراً لإدراك المعاني الغامضة، والأضواء الوامضة، دون أن يجعلها سطحية سوقية ساذجة.

إنه تيسير للذكر، لمن بإمكانه الذكر، لمن لم يغرب عقله، ولم يعزب ضميره وإن كان لُداً: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٢] ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣] فإنه يأخذ بمسامع الآذان، ومن ثم

(١) الجزء ٢٩ ففيه شرح وصورة فوتوغرافية عن اللوحة. التي وجدت في بعض قلل جبل آراراط وهو الجودي كما يصرح به في القرآن ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هُود: ٤٤].
(٢) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٣) سورة الدخان، الآية: ٥٨.

بأزمة القلوب حيث يتلوه الرسول ﷺ في الأنفس: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[١]: يبلغ أعماق القلب ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٢].

فلا سبيل لمن له مراس بلغة القرآن أن يعتذر بغموضه في أعماقه ورموزه، إن لم يتذكره، فكل من يفهم هذه اللغة يتذكر من القرآن قدر مجهوده، ولا أقل تذكّر العظة، وإن لم يبلغ مبالغ الأغوار في علومه وحقوقه، طالما السبيل إليها مسلوكة لمن يواصل السير مجهوده، فإنه معلم لمن يتعلم، وواعظ لمن يتعظ، وقاصد لمن يقصده، وحصد لمن يحصده، وراصد لمن يرصده، وفيه ما يتطلبه أي طالب إلّا الباطل.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾؟

إنهم عاد الأولى وهم قوم هود عليه السلام كذبوه شر تكذيب، رغم ما أنذرهم الله بخير نذر، فلاقوا مسًّا من عذابهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ي؟:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾[٣]:

﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ لا - إليهم، بما يوحي بإرسالها عذاباً لا رحمة، ومن تصريحة العذاب ﴿صَرْصَرًا﴾: وهي البالغة في الصر والقرِّ: برد قارص لا قبل له، فقد كانت غالبة عاتية على هؤلاء العتاة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٤] وكما عتت على خزانها.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٣.
(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٣) راجع ج ٢٩ و٣٠، وقد ذكرت عاد في أربعة وعشرين موضعاً من القرآن تنديداً بهم وتذكيراً لمن بعدهم.
(٤) سورة الحاقة، الآية: ٦.

سخر الله عليهم هذه الصرصر العاتية ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: يوم عذابٍ نحسٍ، فليس اليوم نحساً إلّا بما فيه[١] نحس مستمر استمراراً زمنياً جعله أياماً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾[٢] وهي: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[٣] أيام نحسات حاسمات أزالت كافة آثار النحس والطغيان، فقد أصبحوا تحت رحمة هذه الصرصر العاتية كالنخل الخاوية الأعجاز، المنعقرة المصرومة، المقتلعة عن قعرها ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟[٤].

وقد يوحي هذا التشبيه أنهم كانوا جساماً أقوياء كالنخل، إلا أن عذاب الله أقوى فلا يعرف قوة لهؤلاء الهزلاء الضعفاء.

ثم وهذه الصرصر كان لها حرّها إضافة إلى قرّها، نموذجاً من النار الزمهرير في الجحيم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٥] ازدواجية عذاب الحرّ والقرّ من هذه الريح العقيم الصرصر: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[٦] وعلها كانت في أولها صراً، ثم أصبحت حراً، أم هما المستمران طول الأيام الثمانية!.

---

(١) فنحس هنا صفة لمضاف إليه محذوف، كعذاب أو مثله: يوم عذاب نحس - وليس صفة ليوم فإنه مضاف وليس موصوفاً.
وهذا هو الواقع الملموس أن لا خير فيه ولا نحس إلا بما يجري فيه من خير أو شر، فطبيعة الزمان المقدارية متشابهة الأجزاء، والزمان بوجه عام لزام، وبوجه خاص لنا محسوس ملموس، يظهر من طلوع الشمس وغروبها فمن أين النحوسة أو الخيرية، اللهم إلا مما يحدث فيه. فلا عبرة بالأحاديث الواردة أن يوم الأربعاء أم ماذا يوم نحس.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ٧.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ٨.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٦) سورة الذاريات، الآية: ٤١.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾؟

والجواب هو واقع المشهد لصرعى الزمجرة، ومن ثم نقَلهُ في هذا الذكر الحكيم يسراً للمدّكرين:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

. . . تتكرر هذه الذكرى في هذه المصارع أربع مرات، ولكي يتذكر من أراد أن يذّكر أو أراد نشوراً.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾:

وثمود هم قوم صالح، كذبوا بالنذر قبل صالح ومعه وإياه، وهو يختص بالذكر من بينهم لأنه أعظمهم وآيته الناقة من أعظم الآيات، فظلمهم بها من أقبح الظلم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾[1].

إنهم كذبوا بالنذر قولياً وعملياً، فما أبقوا فيما طغوا شيئاً إلّا فعلوه فَقالُوا ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ مثلث التأنيب ذريعة للتكذيب: ﴿أَبَشَرًا﴾ وكيف يبعث الله بشراً: ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[2] بَشَراً ﴿مِّنَّا﴾ فلو كان بشراً من غيرنا لا مثلنا، فعلّه كان أهلاً للاتباع: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[3] بَشَراً ﴿مِّنَّا وَٰحِدًا﴾: واحداً عن الأنصار، وعن العشيرة والمال، وعن طاقات بشرية وسواها قد تؤهله للاتباع: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[4].

(١) راجع ج ٣ من الفرقان.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

فهؤلاء الأوغاد المناكيد يتذرعون بثالوثهم المنحوس هذا، إلى تكذيب بشر رسول، وترى ماذا يمنع عن كون بشر رسولاً إلى بشر؟ وفيه الحجة، وبه قطع الأعذار وإكمال المهجة، فحتى ولو بعث ملكاً لجُعل بشراً لهذه الغاية وأضرابها ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1].

وترى بعد أن في اتباع الرسول البشر ضلال وسُعُر كما تقولوا: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾: ضلال في أرواحنا، وسعر: نيران متسعرة عاتياً في حياتنا كلها، ولماذا نتبعه فنسجّر لأنفسنا حياةً جهنمية ضالة؟!.

وإذا كان هنا ضلال وسعر، فهل في تكذيب الرسل هداية وجنة، ويا لها من معاكسة ضالة جهنمية يتذرعون بها إلى تكذيبهم رسل الله!. ويا لهؤلاء المكذبين من قدسية احتياطية يتحرزون لها عن اتِّباع رسل الله، احترازاً عن ضلال وسُعُر، هما من مخلفات تكذيب رسل الله!.

ثم نراهم يضيفون إلى ثالوثهم رابعاً يدعمون به صرح الطغيان، ظلمات بعضها فوق بعض، وشبهات مكررة تحيك في صدور المكذبين طوال تاريخ الرسالات:

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؟:

كأنهم هنا أغمضوا النظر عن ثالوثهم المسبق: فليكن بشراً منا واحداً! فلماذا يكون هو هذا الواحد؟ فليكن كل واحد منا رسولاً لنفسه، أو وإلى غيره أيضاً: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[2] أم إذا لا يبعث إلّا واحد، فكيف يلقى عليه الذكر من بيننا، وهو لا يملك عِدة ولا عُدة، ونحن العِدة ولنا العُدة؟: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾[3]؟ وهم

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٣١، ٣٢.

يريدون أن يقسموا المعايش الروحية في الحياة العليا! وأين حياة من حياة، ورزق من رزق؟!.

ومن هذه الشبهات الواهية يتخطون تركهم لاتباع الرسل إلى تكذيبهم الأشِر: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾!: مبالغ في الكذب والبطر: الفرح والفخر والمرح، فالفرح المذموم شديده البطر وأشده الأشر، فقد وجه إلى هذا النبي العظيم أشد التهم، ولكي يسقطوه عن أعين الناس، ويتذرعوا به إلى التخلف الشرعي عنه! ولكن:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾:

فإن الغد سوف يكشف عن من هو الكذاب الأشر كشف الواقع، طالما هو المكشوف اليوم عند من لم يغرب عقله، ومن الغد:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾:

والناقة هذه آية إلهية أرسلت فتنة لهم: حجة واختباراً، وكما اقترحوها[1] فتبين لهم منها مَن هو الكذاب الأشر، قبل أن يعلموا يوم القيامة، فالغد هنا يشملهما، ولا سيما أن في غد الأولى حجة حاضرة حاذرة، وليس في الأخرى إلّا تخويفاً قد لا يخوفهم لأنهم ناكروه وكما في ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾... إيحاء ظاهر أن لإرسالها رباطاً باهراً بالكشف عن الكذاب الأشر.

(١) روضة الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام. في حديث حول الآية: فبعث الله إليهم صالحاً فدعاهم فلم يجيبوه وعتوا عليه عتواً وقالوا: لن نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها فقالوا له: إن كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء فأخرجها الله كما طلبوا منه الحديث.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾: - ولقد حمل صالح هذه الرسالة الآية:

﴿قَالَ . . . قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾[2] ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فيما يفعلون ويفتعلون رقابة الرسالة فتبشيراً وإنذاراً ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذاهم، ولكي يعلموا من الكذاب الأشر.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ﴾: - ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[3] فقد كانت آية في ولادتها دون والدين وعن الجبل، وفي شربها الماء قدر شرب القوم، آية حجة وابتلاء.

﴿. . . قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: قسمة إلهية بينهم وبين الناقة، كل يشرب: نصيب الشرب محتضر: حاضر دون انتقاص، قسمة عادلة حاضرة.

فهل انتبهوا بهذه الآية وخرجوا عن غيّهم؟ كلّا! إنهم ارتكبوا جريمة نكراء، لقد فتكوا بالآية المعجزة وقتلوها:

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: وذلك رغم ما حذروا عن مسها بسوء: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ۖ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4].

عقروا الناقة بما نادوا صاحبهم لعقرها، وساعدوه وهو «أشقى الأولين أحيمر ثمود، رجل عارم عزيز في رهطه»[5] ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾: تناول منهم ما به

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٥٥.
(٤) سورة الأعراف، الآيات: ٧٣-٧٧.
(٥) الدر المنثور ٦: ٣٥٧ عن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة =

يعقر ﴿فَعَقَرَ﴾ الناقة، والتناول هنا يشمل كل التناولات المشجعة للعقر: من خمر تجننه، ومن مال وسيف ومن مكاسب معنوية عندهم، والعقر هو إصابة الأصل والقعر، فهي بالنسبة للناقة استئصالها ونحرها.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[1] فتصالحوا في إفساد عظيم على أحيمرهم فنادوه فتعاطى فعقر، فتمت الفتنة ووقعت المصيبة.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾:

وإنها لصيحة خلفت رجفة مدمرة جاثمة هاشمة تحقيقاً لوعد سابق مطلق وآخر لاحق غير مكذوب: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ... وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ...﴾[2].

ويا لها من صيحة مرجفة جاثمة هاشمة: جثمتهم في ديارهم: لاطئين بها، لازقين عليها كأن لم يغنوا فيها، وهشمتهم: كاسرة لهم كالنبات الرخو ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ ويا له من تنظير عديم النظير، إذ شبههم بهشيم: الحشيش الذي يخرج من الحظائر بتفتُّت، هذا الذي يحتضره المحتظِر: صاحب الحظيرة، للبيع أكلاً للحيوان أو إحراقاً للتدفئة والطبخ.

فهم هشيم لكونهم يابسين كالحشيش كمن ماتوا قبل زمن بعيد، وهشيم

= - فمن أشقى الآخرين! قال: قلت: لا أعلم يا رسول الله ﷺ! قال: الذي يضربك على هذه وأشار إلى نافوخه.

(١) سورة النمل، الآية: ٤٨.

(٢) سورة هود، الآيات: ٦٥-٦٨.

حيث انضمت أجزاؤهم بعضها ببعض كحطب الحاطب الموضوع بعضها فوق بعض كالحظيرة. وهشيمٌ محتضَر لوقود المحتظِر، ولقد كانوا هشيماً كهذا الثالوث من وقعة الصيحة المرجفة. احتضروا كوقود النار: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[1] والله تعالى هو المحتظر لهذا الهشيم من حظيرة الكون الواسع.

ويا لها من مصارع لكفار التاريخ، فهنا هشيم المحتظِر، وهناك أصحاب الفيل كعصف مأكول، وهنالك سائر المعذبين ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ي؟.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾:

. . ومن جرّاء تكذيبهم - وأشده وأنكره - بلوط عليه السلام يرسل الله عليهم حاصباً: ريحاً سماوية تحمل حجارةً: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[2].

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[3]. ﴿نَجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[4] ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ﴾[5].

فهذا القطع من الليل هو من سحره، حيث العيون نائمة، وعيون أهل الله ساهرة، وهذه النجاة من نعم الله: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾: أحياناً في الدنيا وتماماً في الأخرى.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٢) سورة هود، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٥٩، ٦٠.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٦٥.
(٥) سورة هود، الآية: ٨١.

وفيما إذا سألنا: فماذا ذنب الأطفال، غير مكلفين في أي دين، إذ لم يستثنوا مع آل لوط الناجين؟

فالجواب: إن هلاكهم مع آبائهم الكافرين ليس لهم عذاباً، وإنما مزيد ابتلاء لآبائهم إذ يرونهم هلكى كأمثالهم، ثم هم يُجزون جزاء القاصرين غير المقصرين ولا يظلمون نقيراً، وكما يرون آباءهم المقصرين معذبين فيجبر بلاؤهم، وما الله بظلّام للعبيد!.

ومما يوحي بهذا التحليل الآيات المحتجة عليهم، المنددة بهم، المحذرة إياهم عن العذاب، والقصَّر خارجون عنها كلها:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾:

علّها مثلث البطشة: من طمس أعينهم، إذ راودوا لوطاً عن ضيفه، ومن إرسال الحاصب عليهم بحجارة من سجيل، ثم البطشة الكبرى في الأخرى ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[1].

فالبطشة المنذر بها تشملها كلها، وكما أنذر: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[2] كما وأنذر - مثل سائر المنذرين - البطشة الكبرى، ولكنهم ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾: ترددا في أمرهم، تداولاً للمرية فيما بينهم ليجسموها كأنها الحق، متحاجين على النذر، مهددين إياهم، مستهزئين بهم، لاغين معهم، وإلى كل صنوف المماراة.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾:

المراودة هي التفاعل والتعامل في الرّود والتردد في طلب الشيء برفق

(١) سورة الدخان، الآية: ١٦.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٦٦.

أو أي ضرب من ضروب المحاولات، ولقد كانت مراودتهم إياه عن ضيفه - إذ حسبوهم غلماناً صباحاً. فهاج سعارهم - كانت شرسة نحسة للغاية: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ...﴾[1] فـ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ﴾ إيحاءٌ لطيف أنهم على جموعهم المحتشدة وإصرارهم لن يصلوا إلى بغيتهم، إذ إن هؤلاء ملائكة الله، وإن الله يطمس أعين القوم دونهم: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ...﴾ وهل إنه طمسٌ بذهاب أعينهم إلى العمى[2] كما هو ظاهر الطمس، وليس الستر أو السدّ حتى يكون مؤقتاً، وكما قد توحي له ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فليس الحجاب المؤقت عن الرؤية عذاباً في هذا الحساب! ثم وهذا من ذوق العذاب فما هو ذوق النذر؟.

إنه ذوق لنذارات النذر بالعذاب المنذَر به، وتحقيق وعدهم، وتكريمهم فيه رغم مهانة المنذَرين، وقد أنذرهم لوط هذه البطشة الطامسة الحاصبة:

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾:

فطالما الطمس وذهاب الأعين آني لا يستقر عذابه، مهما استقر حرمانهم عن الرؤية، ولكنهم بطمسهم عن الحياة بالحاصب استقروا في العذاب دون فتور، لاتصاله بعذابي البرزخ والقيامة.

---

(١) سورة هود، الآيات: ٧٨-٨١.

(٢) الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قصة لوط.. فكابروه - يعني لوطاً - حتى دخلوا البيت فصاح به جبرائيل فقال: يا لوط دعهم فلما دخلوا أهوى جبرائيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].
وفي علل الشرائع عن أحدهما عليه السلام فأشار إليهم جبرائيل بيده فرجعوا عمياناً يلتمسون الجدار بأيديهم يعاهدون الله عز وجل: لئن أصبحنا لا نستبقي أحداً من آل لوط.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾:

نذير فوق نذير، وتذكير فوق تذكير، وعذاب فوق عذاب بما قدموا من نكير!

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾:

ومن أكبر النذر موسى عليه السلام آية إلهية عظمى يَحمل آيات معجزات، وآل فرعون كذبوا بهذه الآيات كلها، لا بكل الآيات الإلهية طوال الرسالات، فإن منها ما حصلت زمن موسى ونذر معه، أو قبله وبعده، ومنها ما اختصت بخاتمة الرسالات وهي أكبرها وأخلدها، ومنها، فـ﴿كُلِّهَا﴾ هنا تعني كل الآيات التي أرسل بها نذرهم.

﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ﴾: ﴿فَأَخَذْنَهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1] ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فالآخذ عزيز مقتدر، والمأخوذ عزيز مقتدر! فـ﴿أَخْذَ﴾ هنا تتحمل كونها مفعولاً لأجله للآخذ والمأخوذ كليهما، ولكن أين عزيز مقتدر من عزيز مقتدر! وقد يلقي هذا الأخذ ظلال الشدة والعنف على عذابه، تعريضاً بعزة فرعون واقتداره المزعومين، فبحسب ظلمه وبغيه على عزه وقدرته، كان أخذه قوياً.

فأولئكم من أحمق حماقى التاريخ طغياناً وكفراً، ذاقوا وبال أمرهم على عزتهم وقوتهم، فما يأمنكم أن يأتيكم عذاب كما أتاهم:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾؟:

تُرى من هم المخاطبون بـ«كُم» الأولى والثالثة؟ هل هم الكفار المهددون بالعذاب؟ فكيف يضاف الشيء إلى نفسه: «كفاركم» والصحيح -

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٠.

إذاً - أأنتم! أم هم جموع المنذَرين، الكافرين منهم المقصرين، والناكرين القاصرين الذين مصيرهم الإيمان أو اللاتكذيب واللاإيمان؟ قد يكون ذلك، فـ «كفاركم» هم المكذبون الذين سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، و«كم» أعم منهم وكذلك «كم» الثالثة هم جموع المنذَرين، هؤلاء وهؤلاء، ففي توجيه الخطاب إلى العموم، المبتدىء بالقاصرين غير المعاندين، تشريف لهم مع الإنذار، يشاركه ويجاوبه الخطاب الثالث «لكم»: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ أنتم غير المسلمين ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ﴾ جميعاً مكذبين وغير مكذبين ﴿بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾؟:

وإنها نهاية المطاف في إسقاط كل شبهة عن وحي السماء، وسد كل ثغرة وكل مطمع في الهرب عنه.

وترى هل في الكافر خير حتى يفضل به على سواه من الكافرين؟ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ...﴾ علّ الخير هنا خفة الكفر - أأنتم أقل كفراً منهم لكي تأمنوا عذابهم؟ كلا - فأنتم سواء، أو ولو كنتم خيراً فالكفر دركات، لا ينجو أي درك لخفته عما يستحقه، أو علّ الخير هو المزعوم من عزة وقدرة ومال وبنين، يُستمد بها لدفع المضر ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ﴾: أملك مما كانوا يملكون من خير عاجل واهٍ؟ كلّا! فإنهم كانوا خيراً، فلم يك ينفعهم خيرهم عما أصابهم من شر وعذاب: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[1].

أو لا خيرية هنا وهناك - بل: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾:

فما هي هذه الزبر: الكتب؟ هل هي سماوية؟ فأين هي! وإذا كانت هي

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٩.

فتلك إذاً قسمة ضيزى: ظالمة جاهلة وتمييز خاطئ، فالزبر منه براء، اللهم إلا ما كتبته أيدي الدس والتحريف، فالوحي منه براء.. وإذا كانت غير سماوية فلا حجة فيها! والعقل منه براء.

وإذ لا خيرية لهم ولا براءة لكم - كما العقل يدل والواقع يشهد - فهل تسندون في باطلكم إلى جمعكم؟:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾: جمع متكاثف متكاتف كأننا واحد، حيث الفعيل يبالغ في مادته، فالجمع المبالغ في الجمعية هو المتكاتف الرصين كبنيان مرصوص واحد، ولذلك يخبر عنهم ثانياً بـ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ رغم جمعية «نحن» فقد تحولت إلى واحد فهو منتصر: خبر بعد خبر عن «نحن».

وهكذا جمع هو القوة الحاسمة الصارمة وينتج الانتصار والغلبة على المناوئين، وإذا كانوا جميعاً هكذا كما يدعون فلا انتصار لهم إلا على أضرابهم الكافرين غير الجميع، وأما على المؤمنين الجميع فلا، فجمع أولئك هو يبور، لأنه جمع على الباطل البائر، وجمع هؤلاء لا يبور، لأنه على الحق غير البائر، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[1] وإن مكث الباطل زمناً، فـ:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾: وبما أن الهزم هو غمز الشيء اليابس حتى ينحطم كهزم الشن، فهو إيحاء إلى يبسهم في جمعهم إذ لا تلازق عريق، ولا تلاصق عميق، فهم - إذاً - على جمعهم يكسرون وجاه الجمع المتلازق المتلاصق من المؤمنين.

وتصديقاً لهذه الملحمة القرآنية، الحاملة نبأ الغيب، لقد هُزمَت - بعدها

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

بزمن - جموع من المشركين في حروبهم مع المسلمين أولاها حرب بدر، هذه البادرة المعجزة التي بيضت وجوه المسلمين - إذ غلبوا وهم ٣٦٣ شخصاً - على المشركين وهم عشرة آلاف.

تنزل هذه الآية بمكة المكرمة إذ لا عِدة لهم ولا عُدة فلا جرأة على حربهم، ثم تتحقق ببشارتها بالمدينة يوم بدر، وكان يرددها الرسول ﷺ مبتهجاً إن حقق الله له وعده[1] ونصر عبده إذ هزم جمعهم الجميع فولوا الدبر، ووحدة الدبر كوحدة الجمع إشارة إلى وحدتهم في جمعهم.

ومهما كانت هذه الهزيمة - بما قبلها وبعدها من هزائم عظيمة فهي هزيلة بجنب الساعة:

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾:

إنها أدهى: وأبلى لا خلاص عنها، وأمر من كل ما مر: من هزيمة وصاعقة وصرصر وطوفان وحاصب وأخذ عزيز مقتدر، فإنها يوم البطشة الكبرى التي لا قِبَل لها ولا قَبْل فيما مرّ، فإنها أدهى وأمرّ.

فالمرارة وإن كانت لا يوصف بها إلا المذوقات والمتطعمات، ولكن الساعة لما كانت مكروهة عند مستحقي العقاب، ومكروهة بعقابها، حسن وصفها بما يوصف به الشيء المكروه المذاق، ومن عادة من يلاقي مكروهه أن يتهيج وجهه، بما يدل على نفور جأشه وشدة استيحاشه، فكذلك المجرمون إذا شاهدوا أمارات العذاب ونوازل العقاب، ظهر في وجوههم المنكر، ما يستدل به على فظاعة حالهم، فكانوا كلائك المضغة المقرة، وذائق الكأس الصبرة في فرط التقطيب - فـ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

(١) الدر المنثور ٦: ١٣٦ - ١٣٧ - أخرجه جماعة عنه ﷺ أنه كان يثب في الدرع يوم بدر ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ...﴾ [القمر: ٤٥] فلما انتصر قال: هزم الجمع وولوا الدبر - وأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾:

. . . إنهم في ضلال مستمر وسعر متسعر يوم الدنيا ويوم الدين، عكس ما كانوا يتقولون ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[١] فهذه القولة الضالة المتسعرة هي من ضلالهم، الذي هو عذاب للعقول - لو كانت - وللنفوس، ومن جرائها ووراءها سعر الحياة الجهنمية البائسة، وفي آخر المطاف: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كما يسحب الحمر المستنفرة، وليعرفوا ويذوقوا واقع ضلال وسعر ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾؟ فبقدر ما أجرموا يذوقون مس سقر، وبقدر ما قدروا الهدى ضلالاً وسعراً، سوف يكونون في ضلال وسعر - ف:

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾:

خلق بقدر، وتقدير بقدر تكوين بقدر وتشريع بقدر، ثواب بقدر وعقاب بقدر[٢] في كل شيء: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[٣] ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[٤] فخزائن كل شيء عنده كخلق كل شيء منه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٥] إن كان أمراً من الأمور أو الأوامر: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٦] حتى ولو كان ماء من السماء:

(١) سورة القمر، الآية: ٢٤.
(٢) في كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن الحسن بن علي عليه السلام عن علي عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فقال: يقول عز وجل: إنا كل شيء خلقناه لأهل النار بقدر أعمالهم، أقول: وهذا من التفسير بالمصداق المذكور قبل الآية.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٨.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٢١.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[1] فـ ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾:

قدر في كل شيء بحساب الله في خلقه وأمره دون فوضى ولا جهالة، قدر لا يقدر عليه إلا الله، مهما قدره خلق من الله بما أقدره الله علماً وعرفاناً، وكما في تقدم العلوم البشرية ظهور قدر من قدر الله حسب القدرة البشرية، يزيدها علماً وإيقاناً أن الكون بعجلته صنع يد قديرة عليمة واحدة: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[2]؟.

ثم وقدر الشيء هو الحد الذي لا يتجاوزه أو ينقصه، من هندسة الكون، ومن القضاء والقَدَر، اللذين لا يتنافيان واختيار الإنسان فيما يثاب به أو يعاقب عليه، فلقد قدر الله للإنسان فما قدر، أن يكون شيءٌ من أفعاله باختياره، كما قدر له أن يكون شيء آخر من أفعاله دون اختياره، والاختيارية من أفعال الإنسان وإن كانت - في وجه - من أفعال الله أيضاً، ولكنه لا يسيره إليها دون اختياره - فـ «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» لا هو مفوض في أفعاله بمعزل عن الإرادة الإلهية، ولا هو مجبور فيها بمعزل عن اختياره نفسه، وإنما له اختيار في هذه الأفعال قليلاً أو كثيراً، ما يجعله مختاراً، ولو بجزء من مئات الأجزاء، أو مقدمة من مئات المقدمات، فالاختيار بين درجات ودركات، والتفويض والإجبار كلٌّ على سواء دون درجات أو دركات، وليعرف هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون، إن فعل الله ليس فوضى عشوائية عمياء، وإنما بقدر وحكمة، وبعلم ومصلحة ترجع لصالح الخلق والخلق فقط، فليس الله هو المستفيد، وإنما هو المفيد في كل فعل وبكل قدر: قدر يحدِّد حقيقته وصفته، زمانه ومكانه، ومن ثم

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.
(٢) سورة الملك، الآية: ٣.

رباط بسائر الكون وتأثيره فيه وتأثره به، ولو أردنا تفصيل القدر حسب ما وصل إليه علم البشر وهو نقطة من البحر، لكلَّفَنا موسوعة شاسعة واسعة وإليكم نموذجاً من عين لك واحدة: إن لها سبع طبقات وثلاث رطوبات، فواحدة من السبع هي الشبكة، وهي لا تزيد في سمكها على ورقة، وفيها وحدها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة، وبهذه كلها يكون النظر فلتنظر بهذه العين والبصر إلى الكون الواسع لتعرف القدر وكما تقدر.

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾:

فما هو أمر الله هنا وما هو لمح البصر؟ هل هو أمر التشريع؟ وليس واحداً بل هو أوامر في تشاريع: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ...﴾[١] ثم ولا صلة له بلمح البصر! أم هو أمر التكوين والتقدير؟ فكذلك الأمر!: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾[٢] من الأمور والأوامر ﴿بَلۡ لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعٗاۗ﴾[٣] وليس الواحد جميعاً! أو هو أمر الساعة: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾[٤]؟ قد يكون، كما وتجاوبه ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ إذ ليست صفة لأمر، وإنما لموصوف كـ: إرادة - أو كلمة تعنيها: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٥] فهي كلمة كن - التكوينية.

أو أن ﴿أَمۡرُنَآ﴾ هنا تشمل الإرادات الإلهية كلها على سبيل البدل وهو أجمع: وما أمرنا في التكوين والتقدير إلّا واحدة كلمح بالبصر، واحدة حقيقية غير مركبة من معدات مقدمات، ولا في حالة التكوين، ودون حاجة إلى زمان أو مكان أو أعوان ولا أمر آخر أيّاً كان، وإنما كلمة «كن» وليست لفظية، وإنما تكوينية يعبر عنها بها تقريباً لأذهاننا.

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٨.
(٢) سورة القدر، الآية: ٤.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣١.
(٤) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٥) سورة يس، الآية: ٨٢.

كما وأن لمح البصر لا يعني زمناً قدره، وإن كان قصيراً، وإنما يلمح بأقصر القصر كما كان يعرفه البشر، وكما تدلّ عليه ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: بل هو أقرب، قرباً لا يعرفه البشر، لأنه مجرد عن الزمان، فالله هو خالق الزمان والمكان، فكيف يحتاج في أمره إلى مكان أو زمان، وإنما لمح البصر أو أقرب منه لمحٌ إلى سرعة النفاذ لأمره فيما يريد دون تربص ولا تريث.

فبواحدة من هذه الوحدات تكون الساعة، كما تكون كل كائنة من الكائنات صغيرة أو كبيرة. بل لا صغيرة في أمر الله ولا كبيرة، ولا قليلة ولا كثيرة، وإنما واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب!.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾:

الأشياع هم الأتباع في العقيدة والعمل، أو الأحزاب فيها بتجريدها عن التبعية كما هنا، فكيف بإمكان الغابر اتباع الحاضر ولما يأت، اللهم إلا مشاكلة في السيرة، ومن ثم فقد يكون الأشياع والمشيع بهم على سواء، أو أقوى منهم - في خير: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[1] فإنه أعظم من نوح، أو في شر كما هنا، فإن قوم نوح كانوا أظلم وأطغى وقد حشروا بسائر الطغاة في ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ وكما علّه في ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾[2] فلا يشترط في الأشياع التبعية في السيرة، ولا لحوق الزمن أو حضوره.

ثم ولا يعني هلاكهم استهلاك أقوالهم وأفعالهم لكي يخلصوا من عذاب الساعة التي هي أدهى وأمر، فإنها مزبرة مستطرة:

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾:

كل فعل لهم بجانحة أو جارحة، بلسان أو سائر الأعضاء العاملة، كل

(١) سورة الصافات، الآية: ٨٣.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٥٤.

ذلك ثابتة مسجلة في الزبر: زبر الجوارح نفسها، وزبر الأرض بفضائها، وزبر الكرام الكاتبين، في مسجلات صوتية وصورية وكما يصلح أن تكون شاهدة عليهم بما عملوا دون أن يقدروا على نكران.

لا فحسب الكبيرة من الأفعال، فكل صغير وكبير مستطر بما سطره الله استنساخاً عما عملتم ﴿... إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

فهاتان الآيتان من آيات انعكاس الأعمال المنتشرة في سور القرآن بعشرات، فصلناها في طياتها فراجع[٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾:

إنهم في جنات حسية ونهر، وأخرى روحية وهي أكبر: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ ولقد عرفنا ﴿جَنَّٰتٍ﴾: أشجار وبنايات تجنهم عن الشمس وما يؤذي، فما هي (نهر)؟ هل إنها نهر الماء؟ وفي الجنات أنهار كما في سائر الآيات لا (نهر): ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٣]! وأنهم ليسوا هناك في نهر، وإنما على نهر أو أنهار، يتنضّرون بها ويستقون منها ويغوصون فيها!

علّ (نهر) هنا - هي السعة من فيض الله الفائض على أهل الجنة، وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ: «النهر الفضاء والسعة وليس بنهر جار»[٤] كما وتجاوبه اللغة[٥] فهم - إذاً - في جنات، وفي سعة من كافة الحاجيات

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٢) منها سورة الزلزلة والقارعة في ج ٣٠ وسوف نوافيكم بالباقية في سائر الآيات.
(٣) قد جاءت «الأنهار» مع الجنات في ٤٧ موضعاً من القرآن، ولم يأت «نهر» لجنات القيامة إلا هنا، ولما في الدنيا إلا مرتين ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٩] يعني بهما نهر واحد، وليس نهر الجنات الأخروية واحداً إلا في آيتنا هذه، فهل أن هذه اليتيمة قبال ٤٧ الأنهار - تعني الأنهار رغم وحدة الصيغة؟.
(٤) الدر المنثور ٦: ١٣٩ - أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ:
(٥) في لسان العرب: النهر والنهر واحد الأنهار والجمع أنهار ونهر ونهور والنهر كل كثير =

المتطلبات ومنها أنهاراً، فهي أيضاً من نهر، إذ لا حياة فائضة بلا أنهار، فما ألطفه - دون تكلف - أن يراد بـ(نهر) ما يشمل الأنهار وفي مثلث التجاوب كتاباً وسنة ولغة!

ثم ترى ما هو مقعد صدق ومن هو مليك مقتدر؟.. إنه قعود صدق، وقاعدة صدق، مكان صدق ومكانة صدق، و(مقعد) توحي بالدوام واللبث، ومن لطيف ما فيها أن (ق ع د) بكل تقاليبها تدل على الدوام والبقاء[١]، دون (مجلس) ثم ولا تعني القعود قبال القيام والحراك، وإنما المقام والمسكن المريح.

ثم إذا كان ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ هو الله وهو الله، فالمقعد هو المكانة الصادقة الدائبة، فـ(عند) لا تعني قرب المكان إذ ليس له مكان، وإنما المكانة والزلفى، وكما للأخصين من الصالحين: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ...﴾[٣].

وإذا كان المليك هو أقرب عباد الله محمد ﷺ - كما عليه يراد ضمن المراد - فالمقعد هو المكان[٤] ولا غرو في الجمع بين المليك الإلهي

= الجري وأنهرت الدم أسلته، ونهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ قد يجوز أن يعني به السعة والضياء، وفي غريب القرآن: والنهر السعة تشبيهاً بنهر الماء، وفي الشعر:

ملكت بها فانهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

(١) فـ: قعد - قدع بمعنى، و: عقد وعدق بمعنى المكث، ودقع ودعق كذلك - فـ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القَمَر: ٥٥] توحي بكل تقاليبها بدوام المكوث!.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

(٤) الدر المنثور ٦: ١٣٩ - أخرج أبو نعيم عن جابر قال: بينما رسول الله ﷺ يوماً في مسجد المدينة فذكر بعض أصحابه الجنة فقال النبي ﷺ: يا أبا دجانة أما علمت أن من أحبنا وابتلى بمحبتنا أسكنه الله تعالى معنا ثم تلا: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

أقول: هذا الحديث ذو وجهين، فقد يعني بـ«معنا» نفس ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ لأنه الصادق الأول في هذا المقعد - وقد يعني ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القَمَر: ٥٥].

والبشري إذ تتحملها ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وإن كان أين مليك من مليك! وفي هذا الجمع الجميل فالمتقون في مقعد صدق: مكاناً ومكانة، عند مليك مقتدر - فـ(التقوى جماع كل عبادة صالحة، وبه وصل من وصل إلى الدرجات العلى، وبه عاش من عاش بالحياة الطيبة والأنس الدائم)[1] فليعش أطيب الحياة وأدومها عند مليك مقتدر.

ولكي نعرف أن التقوى تقوى أن توصل بالإنسان إلى حفرة القرب، حيث يعاشر المتقي (الذين عند ربك) فعنده مقامه وهو أنسهم وكما عاشوه مدى الحياة، تاركين الرغبات دون حبه وتقواه، معرضين عن طغواه إلى تقواه.

أجل - وإن أفضل المتقين من إذا طالبه الخلق في الدنيا ولها لم يجدوه، ولو طالبه مالك في النار لم يجده، ولو طالبه رضوان في الجنة ملتهياً بها لم يجده، وإنما يجده الله عنده ويجد الله عنده: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ فكونهم في جنات ونهر لا يلهيهم عن كونهم عند مليك مقتدر.

(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير المتقين في هذه الآية.